﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١﴾ [آل عمران: 191]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبةُ بين آياتِ اللهِ الكونيّةِ، والدّعوةِ للذّكر والتّفكّر في الصّنعة الإلهيّة

لَمَّا بيَّن الله تعالى في الآيةِ السَّابقةِ أنَّ الَّذي يستفيدُ من آياتِ اللهِ المبثُوثةِ في كونِه سُبحانه، هم أهلُ العقولِ المستَنيرة، جاءتْ هذه الآيةُ الكريمةُ بعرضِ بعضٍ من صفاتهم اللَّصيقةِ بتفكُّرهم بتلكَ الآيات، فبعد أن ذكر السّياق أنّ في بديع نظام السّماوات والأرض، وعجيبِ صُنعِهما، وفي اختلافِ اللّيل والنّهار وتعاقبهما، آياتٍ ودلائلَ على وحدانيّةِ الله المطلقة، وكمالِ علمه في كونه، وبديعِ قُدرته في ملكوته، ممّا يدركُه أولواْ الألباب، ممّن يستحضِرُون عظمةَ الخالق، ويتذاكرُون دلائلَ ألوهيّته، وفواضلَ ربوبيّته، على جميع أحوالهم، وفي كلّ أوضاعهم، قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم، فيستغرقُون في ذكره، وينغمسُون في شكره، علّهم يؤدّون بعضًا من الشّكران، وقليلًا من العرفان، مقابلِ ما أفاء سبحانه به عليهم، وذلك فضلُ الله يُؤتيه من يشاء، والله ذو الفضلِ العظيم.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ﴾: يقال: "تفكَّر الشَّخصُ: تدبَّر واعتبر واتَّعظ، قال تعالى: ﴿فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ١٧٦﴾ [الأعراف: 176]، وتفكَّر في الطَّبيعة: تأمّل، أعمل العقلَ فيها، ليصل إلى نتيجة أو حلّ، ويقال: (لا تُفَكِّر فلها مُدَبِّر)، والمطلوب التّفكُّر في آلاء الله تعالى ومخلوقاته المبثوثة في كونه، لقوله: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ ويقال: فكّر في الأمر: أي تفكَّر فيه، وتأمّله، وأعمل العقل

فيه ليصل إلى نتيجة، أو حلّ أو قرار، وقولهم: (يفكّر في المستقبل)، أي: يفكِّر في حلّ مشاكله بهدوء، قال تعالى في وصف حال الوليد بن المغيرة: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾﴾ [المدثر: 18][1]، والفِكرةُ: قُوَّةٌ، والتَّفكُّرُ: جَوَلانُ تلكَ القُوَّةِ، بِحسَبِ نظرِ العقل؛ وذلكَ للإنسانِ دونَ الحيوان، ولا يقالُ إلَّا فيما يمكنُ أن يَحصُلَ له صورةٌ في القلب، ولهذا يكونُ التَّفكُّر في آلاءِ اللّه، ولا يكونُ في ذاتِ اللّه، إذْ كانَ اللّهُ ﷻ مُنزَّهًا أن يُوصَفَ بصورة، على غرار الآيةِ قيد التّفسير، ﴿يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ﴾ ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، فهي تفكُّرٌ في آيات اللّه وخَلْقِه، ناهيك عن كون لفظ الفكر، يُستعمَلُ في المعاني، وهو فَرْكُ الأمورِ وبَحْثُها، طلبًا للوصولِ إلى حقيقتِها[2].

2) ﴿بَٰطِلًا﴾: الباطلُ: نقيضُ الحقِّ، وهو ما لا ثباتَ له عند الفَحْصِ عنه، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج: 62]، وقد يُقالُ ذلك في الاعتبارِ إلى المقالِ والفِعالِ، يُقالُ: بَطَلَ بُطُولًا وبُطلًا وبُطلانًا، وأَبطَلَه غيرُه، قال ﷻ: ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [الأعراف: 118]، وقال سُبحانه: ﴿لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [آل عمران: 71][3]، و"ويُقَال: رجل بَطل، ولا يُقَال امْرَأَة بطلة، عَن أبي زيد، وَبَطل الرّجلُ بطالةً، إذا هزل وكَانَ بطّالًا، والبطلانُ: مصدر بَطل الشَّيءُ بطلانًا، والبطلُ والبَاطِل وَاحِد، والأباطيل: جمع إبطالة وأبطولة، ويُقَال: جَاءَ فلَان بالأباطيل"[4].

3) ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾: التَّسبيحُ: تَنزيهُ اللّهِ تعالى، وأصلُه: المَرُّ السَّريعُ في عبادةِ اللّهِ تعالى، وجُعِلَ ذلكَ في فعلِ الخير، وسُبحانَ: أصلُه مصدرٌ، نحو: غُفران، كما قالَ تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الروم: 17]، وجُعِلَ التَّسبيحُ عامًّا في العباداتِ قولًا كان، أو فعلًا، أو نيَّةً[5]، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الصافات: 143]؛ أي: من المُصلِّين[6]، والأَوْلَى أن يُحمَلَ على الثَّلاثةِ السَّابقة، ولفظ "سُبْحَانَ اللّه عَلَمٌ لِلتَّسبِيحِ،

(1) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: 3/1733.
(2) الرّاغب، المفردات، ص: 643.
(3) الرّاغب، المفردات، ص: 129، وابن منظور، اللّسان: (بَطَلَ).
(4) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (بطل).
(5) الرّاغب، المفردات، ص: 129.
(6) ابن قُتيبة، غريبُ القرآن، ص: 374.

لَا يُصرَفُ وَلَا يَتَصَرَّفُ، وَإِنَّمَا يَكُونُ مَنصُوبًا عَلَى المَصدَرِيَّةِ، وَقَولُهُمْ: (سُبحَانَكَ اللهمَّ وَبِحَمْدِك)، مَعْنَاهُ سَبَّحْتُكَ بِجَمِيعِ آلَائِكَ، وَبِحَمدِكَ سَبَّحتُك، وَسَبَّحَ، قَالَ: سُبْحَانَ اللّه، وَسَبَّحَ اللّه نَزَّهَهُ، والسُّبُّوحُ: المُنَزَّهُ عَنْ كُلِّ سُوءٍ[1]، قال أبو بكر: معنى سُبحانك: تنزيهًا لك يا ربّنا من الأولادِ والصّاحبةِ والشّركاء؛ أي: نزّهناك.

4) ﴿فَقِنَا﴾: الوقايةُ: حفظُ الشَّيءِ ممَّا يُؤذِيه ويَضُرُّه، يُقالُ: وَقَيتُ الشَّيءَ أَقِيه وِقايةً ووِقاءً، قالَ تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ﴾ [الإنسان: 11]، وقولُه تعالى: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ [التحريم: 6]، ومن هنا جاءتِ التَّقوى الَّتي هي جعلُ النَّفسِ في وقايةٍ ممَّا يُخافُ، وهذا تحقيقُه، وصارتِ التَّقْوى في تَعارُفِ الشَّرعِ: حفظ النَّفْس ووقايتها عمّا يُؤثِم، وذلكَ بتركِ المحظُور، ويتمُّ ذلك أيضًا، بتركِ بعض المُباحات، قالَ اللّه ﷻ: ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٣٥﴾ [الأعراف: 35][2].

5) ﴿رَبَّنَا﴾: قال الزّجّاج فيما نقله صاحب زاد المسير: "معناه: يقولون: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا﴾، أي: خلقتَه دليلًا عليك، وعلى صدق ما أتتْ به أنبياؤُك، ومعنى سبحانك: براءة لك من السّوء، وتنزيهًا لك أن تكون خلقتهما باطلًا، فقنا عذاب النّار، فقد صدّقنا أنّ لك جنّةً ونارًا"[3].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

الوصلُ بذكر اللّه، والإقرارُ بعظمتِهِ وجلالِهِ، سبيلُ النّجاةِ من النّار

يخبرُ بيانُ اللّهِ تعالى أنَّ من صفاتِ أهلِ العقولِ التَّامَّة الذَّكيَّة الَّتي تُدركُ الأشياءَ بحقائقها على تجَلِيَّاتها، أنَّهم لا يَقطَعون ذِكرَه سبحانه في جميعِ أحوالِهم بسرائرِهم وضمائرِهم وألسِنَتِهم، ويَفهمونَ ما في خلقِ السَّماواتِ والأرضِ من الحِكَمِ الدَّالةِ على عظمةِ الخالقِ وقدرتِه، وعلمِه وحِكمتِه، واخْتيارِه ورحمتِه، قائلين: ربَّنا ما خَلقتَ هذا الخَلقَ عَبَثًا؛ بل بالحقِّ، نُنزِّهكَ عن أن تخلُق

(1) المُطَرِّزِيّ، المغرب، ص: 215.
(2) الرّاغب، المفردات، ص: 881، وابن منظور، اللّسان: (وَقَيَ).
(3) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/361.

شيئًا باطلًا، فاحفَظْنا بحَوْلك ورحمتِكَ من عذابِ النَّار[1]، وهؤلاء هم "الّذين لا يغفلُون عنه تعالى في عامّة أوقاتِهم، باطمئنانِ قلوبهم بذكره، واستغراق سرائرهم بمراقبتِه، مع التّفكر فى بديع صنعِه وأسرار خليقتِه، ويتفكّرون فى خلق السَّماواتِ والأرض، وما فيهما من الأسرارِ والمنافع الدّالةِ على العلم الكامل، والحكمةِ البالغةِ، والقدرةِ التّامّة، الّتي تُفضي إلى تمامِ النّعمة، وكمالِ الدّينِ[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الفصل في الآية:

في قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ﴾: أنّ لفظ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسمٌ موصول، وفيه وجهان: الأوَّلُ: موصولٌ بأولي الألبابِ مجرورٌ على أنَّه نعتٌ كاشفٌ له بما في حَيِّزِ الصِّلَة، وفي "تقدير كونِ الموصول نعتًا لأولي الألباب استئنافٌ مبينٌ لنتيجة التفكرِ ومدلول الايات ناشئ ممّا سبق فإن النفسَ عند سماعِ تخصيصِ الآياتِ المنصوبةِ في خلق العالم بأولي الألباب ثم وصفهم بذكر الله تعالَى والتفكرِ في محال الآياتِ تبقى مترقبةً لما يظهر منهم من آثارها وأحكامِها كأنَّه قيلَ: فماذا يكونُ عند تفكرِهم في ذلك وماذا يترتب عليه من النتيجة؟ فقيل: يقولون: كيت وكيت مما ينبئ عن وقوفهم على سرِّ الخلقِ المؤدِّي إلى معرفة صدقِ الرسلِ وحقيَّة الكُتب الناطقةِ بتفاصيل الأحكامِ الشرعية"[3].

وجه الاستئناف بيانُ نتيجة التفكرِ والترقّب لآثاره وأحكامِه سبحانه

ويحتمل لفظ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ الفصل عمّا قبله، بأنّه: منصوبٌ على المَدْح، أو مرفوعٌ على أنَّه خبرٌ لمبتدأٍ محذوف، تقديرُه (هم)[4]، وأيًّا ما كان فإنَّ الَّذي يَسُدُّ بُلْغَتَنا، أنَّه جاءَ في حيِّزِ صِلَته، مُبيِّنًا للقارئ

أفادتِ الصِّلةُ ربطَ اللَّاحقِ بالسَّابقِ، في بيان صفاتِ أولي الألبابِ وأحوالِهم

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/386 - 387.
(2) المراغي، تفسير المراغي: 4/162 (بتصرّف).
(3) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/623 - 624.
(4) وقيل غير ذلك، ينظر: العكبري، التبيان: 1/162، وأبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/623 - 624.

وللسَّامعِ، أنَّ المرادَ بمن سَبقُوا أنَّهمُ الَّذين لا يَغفُلونَ عنِ اللهِ تعالى في عامَّةِ أوقاتهم؛ لاطْمئنانِ قلوبهم بذكرِه ﷻ، واسْتغراقِ سَرائرِهم في مراقبتِه؛ حيثُ أيقَنُوا بأنَّ كلَّ ما سِواهُ تعالى فائضٌ منه، وعائدٌ إليه، فلا يُشاهِدونَ حالًا من الأحوال في أنفُسِهم[1].

فائدة الموصول ذكرُ الله مُطلقًا، ذاتًا، وصفاتٍ وأفعالًا؛ مقرونًا بالذِّكرِ اللِّسانيّ وغير مقرون

المرادُ به ذكرُه تعالى مُطلقًا، سواءٌ أكانَ ذلكَ من حيثُ الذَّات، أمْ من حيثُ الصِّفاتِ والأفعالِ، وسواءٌ أقارَنَه الذِّكرُ اللِّسانيُّ أمْ لم يُقارِنْه؛ وذلكَ كما وردَ في قولِه تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: 103][2]، فهذا الوصفُ ظاهرُه استعمالُ التّحميد والتّهليل والتّكبير ونحوه من ذكر الله، وأن يحصرَ القلبُ اللّسانَ، وذلك من أعظم وجوه العبادات، والأحاديث في ذلك كثيرة، وابن آدم منتقلٌ في هذه الثّلاثِ الهيئاتِ، لا يخلو في غالبِ أمره منها، فكأنّها تحصرُ زمنَه، وكذلك جرت عائشة - رضي الله عنها - إلى حصر الزّمن في قولها: «كان رسولُ الله ﷺ يذكرُ اللهَ على كلّ أحيانِه»[3].

بلاغة العطف في الآية:

أفادَ العطفُ ووجوهُ الإعراب في بيانِ أهميَّةِ عبادةِ التَّفكُّر، وأحوالِ أهلها وجزائهم المُنْتَظَر

قولُه تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾، نجد قولَه: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ﴾ معطوفًا على ﴿يَذْكُرُونَ﴾، ويجوزُ أن يكونَ حالًا أيضًا، أي: يَذكرونَ اللهَ مُتفكِّرين[4]، وجاءَ هنا بيانُ تَفكُّرِهم في أفعاله ﷻ، إثْرَ بيانِ تفكُّرِهم في ذاته على الإطلاق، وأشارَ إلى نَتيجته الَّتي يُؤدِّي إليها، مِنْ معرفةِ أحوالِ المَعادِ، حَسْبَما نَطقتْ به أَلْسِنَةُ الرُّسُل وآياتُ الكُتُب، فكما أنَّها آياتٌ تشريعيَّةٌ هاديةٌ للخَلْقِ إلى معرفته تعالى ووجوبِ طاعته، كذلكَ المخلوقاتُ آياتٌ تكوينيَّةٌ، مُرشِدةٌ لهم إلى

(1) الجاويّ، مراح لبيد: 1/174.
(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/129.
(3) مسلم، الحديث رقم: (373).
(4) العكبريّ، التبيان: 1/122.

ذلكَ، فالأُولى مُنَبِّهاتٌ لهم على الثَّانية، ودَواعٍ إلى الاسْتشهادِ بها، كهذه الآية الكريمة ونحوِها، والثَّانيةُ مُؤيِّداتٌ للأُولى وشواهدُ دالَّةٌ على صِحَّةِ مَضمونِها وحَقِّيَّةِ مَكنونِها، ومَنْ تأمَّل في الأُولى والثَّانية أدركَ يقينًا قُدرةَ اللّهِ التَّامَّةَ، ومُلكَه القاهِر، وعلمَه الشَّامِل، وحكمتَه البالِغة، وغيرَ ذلكَ من صفاتِ الجَلالِ والجَمالِ والكَمال للّهِ الأَحَدِ[1].

سرُّ الحذف والنفي في الدّعاء:

قولُه تعالى: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ على إرادةِ القول؛ أي: يقولونَ ذلك، وهو في محلِّ الحال، بمعنَى: يتفكَّرونَ قائلين، وفيه حذف لحرف النداء دلالة على القرب، ونَفَى بـ (ما) النافية الداخلة على الماضي، ليدلّ على انقضاء أمر انتفاء الخلق باطلًا، فهي آكدُ من (لم) في النّفي، والمعنَى: ما خلَقْتَه خَلْقًا باطلًا بغيرِ حكمة؛ بل خلقتَه لِداعي حكمةٍ عظيمة، وهو أن تجعلَها مساكنَ للمكلَّفينَ وأدلَّةً على معرفتِكَ، ووجوبِ طاعتكَ، واجْتناب معصيتِك، ولذلكَ وصلَ به قولَه: ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾؛ لأنَّه جزاءُ من عَصى ولم يُطِع[2]، وفيه "تنبيه أنه قصد تعالى بخلق هذه الأشياء قصداً صحيحاً"[3]، أي: "ما خلقتَ هذا مخالفًا لِمَا أَنْبأَتنا به الرُّسُل عنك من الحشر، والنشر، والإعادة، والثواب، والعقاب، بل هو موافق لذلك ودليل عليه لا أنه لأجله وعلة فيه"[4].

في الدّعاء تنبيهٌ بقصديّة الخلق، وتنزيهٌ للهِ أن يخلقَ مخلوقًا بدون حكمةٍ أو غايةٍ

علّة إيثار لفظ الربوبيّة مطلقًا:

التفكر يجعل القلب يخضع واللسان يخشع فينطق مستشعرًا عظمة الله مبتهلًا بلفظ: ﴿رَبَّنَا﴾، وهذه الضراعة التي بدتْ على الألسنة هي أولى ثمرات التفكّر، لقد وصلوا بفكرهم إلى إدراك

خشوع القلب مدعاةٌ لنداء الباري بلفظه المُشعر بالحنان، والشفقة

(1) الخازن، لباب التّأويل: 1/332.
(2) الزّمَخْشري، الكشّاف: 1/488.
(3) الراغب، تفسير الراغب: 3/1046.
(4) البسيلي، التّقييد الكبير، ص: 612.

ربِّهم فقالوا: ﴿رَبَّنَا﴾، ونادوه سبحانه باللفظ المشعر بالحنان، والشفقة، والنداء الخاضع الضارع الشّاكر لنعمائه، وقد وصلوا بتفكيرهم وتدبّرهم إلى أنّ هذا الكون لا يمكن أن يُخلق باطلا[1].

نكتة ترتيب الخوف على التّفكّر:

الخوفُ منتهى التّفكر، والشعور بالمهابة

ترتيبُ الخوف على التّفكر له موضعه؛ لأن نهاية التّفكر هو الخوف؛ إذ ينتهي إلى أعلى درجات الشّعور بالمهابة لله تعالى، وهو يجعل المؤمن يستصغر حسناته، ويستكثر سيئاته[2]، فنتيجةُ هذا الترتيب: الذكرُ، والفكر، والإقرار، والتنزيه[3].

سرّ التعبير باسم الاشارة:

في الإشارة بهذا ضربٌ من التّعظيم:

كلمةُ ﴿هَٰذَا﴾ إشارةٌ إلى السَّماواتِ والأرضِ، مُتضمِّنةٌ لِضَربٍ من التَّعظيم، كما في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: 9][4]، أو الاشارة فيه إلى (الخلق) في قوله: ﴿خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، قال أبو حيّان: "هذه الجملةُ محكيّةٌ بقولٍ محذوفٍ، تقديره: (يقولون)، وهذا الفعلُ في موضع نصبٍ على الحال، والإشارةُ بهذا إلى الخلق، إن كان المرادُ المخلوقَ، أو إلى السَّماواتِ والأرض؛ لأنّها في معنى المخلوق؛ أي: ما خلقتُ هذا المخلوقَ العجيبَ باطلًا، قيل: المعنى خلقًا باطلًا، أي: لغير غايةٍ، بل خلقتُه وخلقتُ البشرَ لينظر فيه، فيوحِّد ويَعْبُد، فمن فعل ذلك نعّمتُه، ومن ضلّ عن ذلك عذّبتُه"[5].

نكتة التعبير بالمصدر: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾:

وقولُه: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ اعتراضٌ للتَّنزيهِ من العَبَث، وأن يَخلُقَ شيئًا

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1548.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1549.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/147.
(4) الزّمَخْشري، الكشّاف: 1/488.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/470.

بلا حِكْمَة[1]، وهو اعتراضٌ مؤكِّدٌ لمضمونِ ما قبلَه، وَمُمَهِّدٌ لِمَا بعدَه، من قولِه: ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[2]، فمعنى ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾، أي تنزيهاً لك من أن تكون خلقتهما باطلاً، ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾؛ أي: صدَّقْنا رسلَك، وسلَّمنا أنّ لك جنّةً وناراً، فَقِنا عَذابَ النَّارِ[3].

التسبيحُ اعتراضٌ للتَّنزيهِ عن العَبَث، وأن يَخلُقَ شيئًا بلا حِكْمَة

سرّ استعمال الفاء:

وقولُه: ﴿فَقِنَا﴾ دخلَتِ الفاءُ هنا لمعنَى الجَزاء، فالتَّقديرُ: إذا نزَّهْناكَ أو وحَّدْناكَ فَقِنا عذابَ النَّار[4]، أو هي للعطف، وفي دخولها وجهان: أحدُهما: الوقوفُ على تحقق العذابِ فالفاءُ لترتيبِ الدّعاءِ عَلَى الإقرار المذكور، والثاني: الاستعدادُ لقبول الدعاءِ فالفاءُ لترتيب المدعوِّ، أي: الوقاية على ذلك، كأنه قيل: وإذ قد عرَفنا سرَّك وأطعنا أمرَك ونزّهناك عما لا ينبغي فقِنا عذابَ النّارِ الّذي هو جزاءُ الّذين لا يعرِفون ذلك[5].

أفادتِ الفاءُ ترتيبَ الدعاء، أو الاستعدادَ لقبوله

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

التَّفكُّر والتَّدَبُّر

قولُه تعالى ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ﴾: سبقَ بيانُ (التَّفكُّر)، وهو التَّدبُّر والاعتبار والاتِّعاظ، وهو أيضًا التّأمّل وإعمال العقلِ للوصول إلى نتيجة أو حلّ، لما يفكّر فيه، وأمّا (التَّدَبُّر) فهو: النَّظرُ في عواقبِ الأُمور[6]، وهو من الفعلِ (دَبَرَ)، يُقالُ: دَبَرَ فلانٌ القومَ: صارَ خَلْفَهم، ودَبَرَ السَّهمُ الهَدَفَ: سقطَ خلفَه، ولذلكَ يُقالُ: التَّدبيرُ: التَّفكُّرُ في دُبُرِ الأُمور[7]، وقولُه تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ﴾ [المؤمنون:

(1) الزَّمَخْشري، الكشّاف: 1/488 - 489.
(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/627.
(3) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/274.
(4) العكبريّ، التبيان: 1/163.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/147، وأبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/131.
(6) الفيروزآباديّ، القاموس المحيط: (دَبَرَ).
(7) الرّاغب، المفردات، ص: 307.

68]؛ أي: أَلَم يَتفهَّمُوا ما خُوطِبوا به في القُرآن[1]، وإذا كان التَّدَبُّر: تصرُّف القلبِ بالنَّظرِ في عواقبِ الأمور، والتَّفكُّرُ: تصرُّف القلبِ بالنَّظرِ في الدَّلائل[2]، عَلِمْنا يقينًا ما في إيرادِ كلمةِ (التَّفكُّر)، دونَ غيرِها، من حكمةٍ بالغةٍ وأثرٍ عظيم، في تَحفيزِ العقلِ والقلبِ، لِينالا حظَّهُما الأَوْفَرَ في جَوَلانِ تلك القُوَّةِ المودَعَةِ فيهما بِخَلْقِ اللّهِ وأمرِه، بالنَّظَرِ الأَمْثَلِ في دلائلِ عظمةِ اللّهِ وقدرتِه ووحدانيَّتِه، قال ابن رشد: "والتّفكّرُ من الأعمال، كما قال مالكٌ رحمهُ اللّه، وهو من أشرفِ الأعمال؛ لأنّه من أعمالِ القلوبِ الّتي هي أشرفُ الجوارح، ألا ترى أنّه لا يُثابُ أحدٌ على عملٍ من أعمالِ الجوارح، من الوضوءِ، والصّلاةِ، والصّيامِ، والحجّ، وسائرِ الطّاعات إلّا مع مشاركةِ القلوب لها، بإخلاصِ النّيّة للّه (ﷻ) في فعلِها؟"[3].

الباطل، والعبث

سبقَ بيانُ قولِه: ﴿بَٰطِلًا﴾، والباطل هو نقيضُ الحقِّ، وهو ما لا ثباتَ له عند تمحيصه، ولا مصداقيّة له، عند التّدليل عليه، وأمَّا العَبَثُ: فهو أن يَخْلُطَ بعملِه لَعِبًا، والعَبَثُ: طعامٌ مَخلوطٌ بشَيء، ومنه قيلَ: العَوْبَثَانيُّ؛ لتمرٍ وسَمْنٍ وسَوِيقٍ مُختَلِط، قالَ تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الشعراء: 128]، ويُقال لمن ليس له غَرَضٌ صحيحٌ: عَبَثٌ، قال ﷻ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾، وبالنَّظَرِ في الفرقِ بين الكلمتَيْن، يظهرُ أنَّ سياقَ النَّصِّ القرآنيِّ، لا يَقبَلُ وجودَ كلمةٍ (عَبَثًا)، فهؤلاء المتفكِّرون المتدبِّرون في آياتِ اللّهِ وعظيمِ خَلْقِه ﷻ، يُنزِّهونَ خالقَهم عن أيِّ فعلٍ أو أمرٍ أو حُكمٍ يُناقضُ الحقَّ، ومفهومُ مناقضةِ الحقِّ أوسعُ دَلالةً وشُموليَّةً من مجرَّدِ مجانبةِ اللهو واللَّعب، كما تَعنيه كلمةُ (عَبثًا)، وخاصَّةً أنَّها سُبقتْ بقوله: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ الَّتي تعني تنزيه اللّهِ ﷻ، عن كلِّ ما لا يليقُ به ﷻ، في ذاتِه وصفاتِه وأفعالِه، وأحكامِه وحِكَمِه، وكمالِه وجلالِه وجمالِه؛ ولذلكَ كانتْ كلمةُ ﴿بَٰطِلًا﴾ أوفَرَ حظًّا في تحقيقِ الغرضِ المرادِ من سِياقِ النَّصِّ القرآنيِّ من كلمةِ (عَبَثًا).

(1) الفيروزآباديّ، القاموس المحيط: (دَبَرَ).
(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 121.
(3) ابن رشد، البيان والتّحصيل: 17/581.

الوقاية والحفظ

قولُه تعالى: ﴿فَقِنَا﴾: سبقَ بيانُ معنَى الوِقايةِ، وهي حفظُ الشَّيءِ ممَّا يُؤذِيهِ ويَضُرُّه، وأمَّا الحِفظُ فهو يُستعمَلُ في كلِّ تَفقُّدٍ وتَعهُّدٍ ورِعايَة، قالَ اللّه تعالى: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾﴾ [يوسف: 12]: ، وقال سُبحانه: ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗا﴾ [يوسف: 64]؛ أي: حفظُه ﷻ خَيْرٌ من حفظِ غيرِه، والحِفَاظُ: المُحافَظةُ، وهي أنْ يحفَظَ كُلُّ واحدٍ الآخَر[1]، وبالعَودِ لمعنَى (الوِقاية) نجدُها أَوْفَرَ قُوَّةً في المعنَى، وأَصْوبَ قِيلًا، من حيثُ ما يريدُه سِياقُ النَّصِّ القرآنيِّ، من شدَّة الحفظِ، من كلِّ ما يُؤذِي ويَضُرُّ، وهي مرتبطةٌ ارتباطًا وثيقًا، بالإبعادِ عن كلِّ شرٍّ، ولا أشدُّ شرًّا من أهوالِ يومِ القيامة، والَّذي يُعاني فيه الكفَّارُ والمنافقونَ ما يعانون؛ ولذلكَ جاءَ فعلُ الوِقايةِ دونَ الحفظِ، في أخطرِ المواقف، وأَحْلَكِ الظُّروفِ، وأشقّ الأَحْوال، وقد جاء لفظ الوقاية خصوصا من موقف الآخرة المخزي، بما فيه من هول وهلاك، وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ﴾ [الإنسان: 11]؛ وفي التّحذير من فعل ما يغمس في النّار، وذلك في قولِه تعالى: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ [التحريم: 6]، والنّذارة من شرّ المصير الأكيد، وذوق العذاب الشّديد، وذلك ما يعبّر عنه قولِه تعالى: ﴿فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾﴾ [اللّيل: 14 - 16].

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 244 - 245.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس، سورة آل عمران من الآية 141 إلى الآية 23 من سورة النساء
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة آل عمران من الآية 141 إلى الآية 23 من سورة النساء [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 6 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-58-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 6 : سورة آل عمران من الآية 141 إلى الآية 23 من سورة النساء.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-58-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-2475776 بتاريخ 2023/03/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»